

الوعي الاستمولوجي للدرس اللساني عند محمد الأوراهي

Epistemological awareness of the linguistic lesson of the Muhammad al-Awraghi

لعرباوي نورية

noria.larbaoui@univ-relizane.dz

جامعة غليزان / الجزائر

تاريخ النشر: 2022/06/16

تاريخ القبول: 2022/04/20

تاريخ الاستلام: 2021/10/30

ABSTRACT:

ملخص البحث

The contemporary Arab linguistic achievement has known a discrepancy in the cognitive and methodological visions and perceptions towards modern linguistic theories; Between the victor of a single linguistic tendency, and those who take the writings of a Westerner as a starting point for the heritage dialogue, while the linguist Muhammad al-Awraghi looked at it critically, which revealed an epistemological awareness that emerged through his examination of rules of the total grammar presented by Chomsky and his attempt to transcend them and propose an alternative linguistic theory termed as relative linguistics, which we will try Uncover its theoretical and methodological premises through this research.

Keywords: epistemology, linguistics, Al Auraghi, generative, relativism, Chomsky

عرف المنجز اللساني العربي المعاصر تباينا في الرؤى والتصورات المعرفية والمنهجية اتجاه النظريات اللسانية الحديثة؛ بين منتصر لاتجاه لساني واحد، وبين من يتخذ كتابات أحد الغربيين منطلقا لمحاورة التراث، بينما نظر إليها اللساني محمد الأوراهي نظرة نقدية كشفت عن وعي استمولوجي تبدى من خلال فحصه لمقولات النحو الكلي الذي قدمه تشومسكي ومحاولته تجاوزها واقتراح نظرية لسانية بديلة اصطلاح عليها باللسانيات النسبية والتي سنحاول كشف منطلقاتها النظرية والمنهجية من خلال هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: الاستمولوجيا، اللسانيات، الأوراهي، التوليدية، النسبية، تشومسكي.

مجلة لغة – كلام / مخبر اللغة والتواصل جامعة غليزان (الجزائر)

1. مقدمة:

النظرية اللسانية شبكة من المفاهيم المترابطة التي تؤدي إلى الوصف العلمي للغة من خلال بحث الخصائص المشتركة بين اللغات البشرية، وقد ظهرت اتجاهات ونظريات لسانية متعددة لكل منها مبادئ ومنطلقات مختلفة لكنها تتفق جميعها في محاولة تقديم تفسير علمي وموضوعي للغة. وقد تنوعت كتابات اللسانيين العرب المحدثين باختلاف تصوراتهم المعرفية والمنهجية بين من ينتصر لتوجه لساني واحد، وبين من يتخذ كتابات أحد الغربيين منطلقاً لمحاورة التراث، بينما نظر إليها فريق آخر برؤية نقدية ومن منطلق استمولوجي باحثاً في مبادئ تلك النظريات، فاحصاً فرضياتها ومنهجها ومدققاً في نتائجها المتوصل إليها.

تنتهي أبحاث اللساني محمد الأوراعي إلى الاتجاه الأخير؛ إذ تعدّ خطاباته إحدى الخطابات التقويمية المؤسسة لاستمولوجيا نظراً لقيامها على أهمّ مبادئ هذا العلم، ويرى محمد الأوراعي أن اللسانيين العرب خاصة المعاصرين وقعوا في العديد من المزالق الاستمولوجية منها تطبيقهم لنظرية النحو الكلي على اللغة العربية التي تختلف في بنيتها عن اللغة الانجليزية والإشكال المطروح في هذا السياق:

ما محددات الممارسة الاستمولوجية؟ وكيف تمثّل الأوراعي جهود سابقه ومعاصريه؟ وكيف استطاع أن يتجاوزها؟ وماهي مبادئ ومرتكزات نظريته البديلة التي اصطلح عليها باللسانيات النسبية؟

2. محددات الممارسة الاستمولوجية اللسانية:

بادئ ذي بدء يجدر بنا الوقوف على مفهوم مصطلح الاستمولوجيا لنتبيّن فيما بعد كيف وظّفها الأوراعي في تقويم الفكر اللساني الغربي الممثل في نظرية النحو الكلي التي جاء بها تشومسكي. تُعرّف الاستمولوجيا على أنّها الدراسة النقدية للعلوم¹ من حيث فروضها ونتائجها وقيمتها الموضوعية، ويتفرّع البحث الاستمولوجي إلى نوعين من الممارسة الاستمولوجية: استمولوجيا عامة أو موسّعة أو ما يُعرف بنظرية المعرفة، واستمولوجيا خاصة تتعلّق بنوع معين من المعرفة مثل الفيزياء أو الرياضيات أو اللسانيات، وتهتم استمولوجيا اللسانيات بحل المشاكل التي تعترض تحليلات أهل هذا الاختصاص وذلك بفحص أسس ومبادئ وفرضيات النظريات اللسانية وكشف قيمتها واقتراح نظرية مجاوزة لها.²

إذن الاستمولوجيا هي المعيار الحقيقي لصحة المعرفة والانتصار لاتجاه لساني معين أو مهاجمته بناء على أسس ميتودولوجية وفلسفية ومعرفية للخطابات اللسانية، "فمجموع هذه الحقول المعرفية يشكل استمولوجيا، ولا يمكن أن تقوم ممارسة استمولوجية بأحد دون غيره... إذ تتحد هذه الحقول المعرفية لتعمل معاً على تقييم الخطاب الميتالغوي من خلال الكشف عن أصول

الخطاب ومنطقه واستلزاماته ومناهجه، فوجود هذا المجال المعرفي يحد من الانزلاق في متاهات الأحكام الذاتية ويحدد في الآن نفسه الأسس والمبادئ التي تقوم عليها عملية تقويم المعرفة اللسانية.³ بناءً على ما سبق ميّز الأوراعي بين نوعين من طرق البحث في اللغة؛ فالعالم إذاً أقبل على دراسة اللغة ووصفها فهو في هذه الحالة عالم لساني، أمّا إذا اتخذ منهج التأمل في اللغة -من حيث الفرضيات والطرائق والأهداف والمفاهيم- موضوعاً للتفكير فهو في هذه الحالة عالم استمولوجي.⁴ وقد يُزاوج الباحث اللساني بين المحورين؛ محور أفقي وهو يتبع اللغة من أجل الكشف عن بنيتها ومحور عمودي وهو يترك النظر في اللغة مؤقتاً لينظر مجدداً في الطريقة التي ينتهجها إبان تأمله في اللغة.

الخلاصة أن الحديث عن النظرية اللسانية هو حديث في الطريقة المنتهجة لاقتناص المعرفة اللغوية، وحين نتحدث عن النظرية اللسانية فإننا نتحدث عن منهجية النظر في تلك المعرفة. إنّ الدراسة الاستمولوجية لأي نظرية من النظريات اللسانية تنبني على مبدئين بارزين: مبدأ الانسجام للنسق النظري، ومبدأ عدم التناقض اللازم عن الأول أو بتعبير آخر مراعاة محددتين أساسيتين:

— صمود النظرية أمام النقد العقلي؛ بحيث تكون العناصر الأساسية المكونة للنظرية غير متناقضة ولا يوجد بينها أدنى تعارض حتى تحافظ النظرية على السلامة المنطقية داخلياً، وتُحقّق بذلك إقبال العلماء المشتغلين في نفس الحقل العلمي، وذلك باختبار العناصر الأساسية المكون للنظرية وهي:

أ/ مقدمة الانطلاق التي تتخذها النظرية اللسانية، أو ما يُعرف بفرضية العمل الأساسية.

ب/ طبيعة المنهج المعتمد في النظرية

— الهدف الذي ترمي إلى تحقيقه النظرية اللسانية. إضافة إلى توخي البساطة في الطرح.⁵

اعتمد الأوراعي تلك المحداث الاستمولوجية السالفة الذكر في نقد وتقويم المعرفة اللسانية قديمها وحديثها، مصنّفاً إياها إلى لسانيات كلية وأخرى خاصة، وبعد الفحص والتأمل والتدقيق وجد أن كلا الاتجاهين وقعا في عدد من العيوب والمزالق الاستمولوجية، الأمر الذي قاده إلى طرح جملة من الأسئلة: ما الداعي إلى إقامة نظرية لسانية جديدة؟ وثانيتها كيف هي بنية النظرية المستحدثة بالقياس إلى مثيلاتها القائمة أو المنقرضة؟ وثالثها ما توقعاتها في مجال النماذج النحوية؟ ورابعها ما جدوى النظرية والمتوقع في إطارها من النماذج النحوية. والسؤال الأخير يمكن صوغه بالعبارة المألوفة لدى الباحثين بقولنا هل نظرية اللسانيات النسبية أحدثت حقاً ثورة علمية في حقل الدراسات اللغوية؟

3. أزمة الفكر اللغوي في نظر الأوراعي

بناءً على ما سبق واستحضاراً للسؤال الأول الذي طرحه الأوراعي -توصّل إلى أنّ البحث في اللغة كان قبل إنشاء النظرية اللسانية يُمارس بمنهجية مغايرة فيها من القصور والاختلالات ما يدعو إلى التخلي عنها وإنشاء بديل عنها، فكانت النظرية اللسانية (استعرض الأوراعي مراحل البحث في اللغة في طورين أساسين اصطلاح على الأول بالطور المراسي، والطور الثاني طور النمطية اللسانية التي ظهرت بعد اللسانيات التاريخية).

ومع تشعب الدراسات اللسانية وتراكمها تعرّس على الباحث اللساني العربي الإحاطة بها أو الاعتماد على أحدها في دراسة اللغة العربية، وعليه أصبح الفكر اللغوي اللساني يعيش أزمة في الوقت الراهن... وأنّ ما بأيدي الباحثين في اللغة من نظريات لسانية ونماذج نحوية قاصر عن حلّ الكثير من مشاكل اللغات البشرية التي ظلّت مستعصيةً على الجميع⁶ منها نظرية النحو الكلي التي جاء بها تشومسكي، والتي قامت أصلاً من أجل تقليص أنحاء اللغات البشرية إلى نحو واحد، يجده صاحب النظرية في لغته، ويتوسّل بمبدأ التعميم ليعدّي مبادئ هذا النحو الكلي وقواعده إلى باقي اللغات. كما يتّخذ من الاختبار المراسي وسيلةً للتحقق من صدق ما يتوقّعه نحو لكل اللغات، ويساعده لسانيون يلقّنون قواعد النحو الكلي ليطبّقوها في وصف لغاتهم الخاصة. وإذا قضت نظرية النحو الكلي مبدأً أو قاعدةً ليس للأنحاء الخاصة إلا الاستجابة، وإلا اعتبرت لغاتها غير طبيعية وشاذة. سعى تشومسكي من خلال نظريته تلك إلى وضع قوانين تطبّق على جميع اللغات، وبالتالي عدم مراعاة خصوصية اللغات، فأغلب ما يقدمه تشومسكي من القواعد والمبادئ التي يصفها بالكليّة ليس له من العربية مثال إلا بإدخال ذاك التركيب عليها⁷ خاصّة مع ثبوت اختلاف أنماط اللغات، وأنّ نظرية النحو الكلي أقيمت على اللغة الانجليزية التي تختلف في بنيتها عن بنية اللغة العربية.

وخُصّ في الأخير إلى أنّ أزمة التراث اللغوي العربي لا تنحلّ بتركه من أجل الانخراط في مدرسة لسانية غربية، ولا بمحاولة التوفيق بينه وبين تأملات لسانية منبثقة من لغات مغايرة نمطياً للعربية. إذ كلّ ذلك يزيد من تعميق أزمة الفكر اللغوي العربي المعاصر، وأنّ تخطّي هذه المرحلة مرهون بشروع أهل الفكر من اللسانيين العرب في إقامة النظرية اللسانية التي تتجاوز كلّ ما بأيدي الباحثين في اللغات البشرية من نظريات لسانية ونماذج نحوية سواء كانت قديمة أو حديثة؛ بحيث تستطيع أن تجلب إليها مجتمع اللسانيين الباحثين في اللغات البشرية والمتخصصين في دراستها وصفاً وتفسيراً. علماً أنّ الباحثين في أيّ حقلٍ من حقول المعرفة يُكوّنون مجتمعاً محافظاً؛ إذ يكادون يخضعون خضوعاً جماعياً للنظرية السائدة في عصرهم، ويتقيّدون في تفكيرهم بمعاييرها، ولا يبدأ ترحّلهم الثقافي والابتعاد التدريجي عن النظريات والنماذج التي نشأوا تفكيرهم في إطارها إلا إذا اشتدّت أزمته، وتفتشت فيها ثغرات يُفترض في النظرية الجديدة المنافسة أن تسدّها، ولا يتأتّى ذلك إلا بنقد

النظرية من أساسها وتجاوزها-بمعنى التجاوز الاستمولوجي-إلى نظرية بديلة تتجنب تلك الاختلالات وتقدم نظرية يصدق تطبيقها على اللغات، مع مراعاة نمطها الخاص.

4. انتقاض مبادئ اللسانيات الكلية من منظور استمولوجي

لا تنتقض اللسانيات الكلية- حسب ما ذهب إليه الأوراعي- من حيث هي نظرية، وإنما تُؤتى من أساسها المتمثل في مقدّمها الطبيعية الذاهبة إلى أنّ اللغة عبارة عن نسق من المبادئ المرقونة خِلَقَةً في خلايا ذهنية كما يذهب إلى ذلك تشومسكي مُمثل الفلسفة الاصطلاحية*⁸ في ميدان اللغة وعلمها.

استلهم شومسكي نزعة الاصطلاحيين، وبلورها داخل اللسانيات في مواضع كثيرة من كتبه، فَعكس عقيدتهم، وبذلك انضم تشومسكي إلى الفلاسفة الاصطلاحيين، الأمر الذي سيضطره عقدياً إلى الرفض المطلق لكل النزعات التي تكوّن "التيار الواقعي"، ويجبره ذلك علمياً على إقامة نظرية لسانية تستجيب لبنائها المنطقي لشروط النسق الرياضي. وبذلكم النسقين تُؤوّل التجربة ويتأتى إسقاط بناء عقلي على وقائع العالم ومعطيات اللغة. فالنظريات في النزعة الاصطلاحية "عبارة عن شبكات لاصطياد العالم وجعله عالماً معقولاً بتفسيره والتحكم فيه.

تُقام النظرية اللسانية بشروط النزعة الاصطلاحية إذا توافرت فيها أو في مواد بنائها الخصائص التالية:

-المقدمة الأولى المؤسسة للنظرية يجب أن تكون "فرضية اعتباطية"، وهي قضية تتميز بسمات ثلاث هي: (أ) أن يكون محتواها وضعياً لا يحيل على واقع؛ (ب) لا تقبل الإثبات، لذلك تسند إليها القيمة "صادقة" مع التسليم الاعتباطي بهذه القيمة؛ (ج) لا تقبل الفحص ولا النقض، وكذلك حال ما يبنى عليها. تلکُم الخصائص متوافرة جميعها في فرضية العمل الاعتباطية المؤسسة للنظرية اللسانية الكلية، والقاتلة: "إن اللغة مَلَكَه طَبْعِيَّة مرقونة خِلَقَةً في خلايا عضو من الدماغ البشري تنتقل من جيل إلى آخر بمورثات عضوية"⁹

-النظرية مُزَّهة عن النقض¹⁰؛ إذ تقوم بينها وبين موضوعها علاقة أحادية التأثير؛ من النظرية اللسانية في اتجاه المعطيات اللغوية ولا ينعكس أبداً. إن الحكم على البناء المنطقي للنسق النظري بالدقة والضبط يتعلق بمدى الانسجام الداخلي الحاصل بين فرضية العمل وبين ما استنبط منها بواسطة قواعد برهانية محددة سلفاً، ولا يتأثر بناء النظرية البتة بملاحظة الوقائع التجريبية، وتعبير آخر يسير في الاتجاه نفسه، إن الشواهد الملحوظة في معطيات اللغة الخاصة بالعربية مثلاً يجوز استعمالها لاختبار قواعد النموذج النحوي الذي أقامته النظرية اللسانية، لكن ليس لتلك المعطيات أن تنقض مبدأ كلياً توقعته النظرية.

وهنا يكمن القصور في نظرية تشومسكي لأنّ ما يضمن للنظرية وجاهتها هو الاستدلال من الوقائع على النظرية لا العكس(أي الاستدلال من النظرية على الوقائع)¹¹

نخلص مما سبق إلى أن النزعة الاصطلاحية المتميزة بنفمها لحقائق الأشياء إذا بُنيت نظرية لسانية بشروطها الثلاثة (أولاً، التسليم الاعتباطي بصدق فرضية العمل المتبناة؛ ثانياً، تنزيه النظرية عن النقض؛ ثالثاً، حماية النظرية المتميزة ببنائها المنطقي من الانهيار)، أوجبت لتلك النظرية خصائص ثلاثاً: أولاً، أن يكون موضوعها كلياً؛ ثانياً، أن يكون منهجها جامعاً بين الفرض والاستنباط، ثالثاً، أن تكون معرفتها نظرية: إن التسليم بأن اللغة ملكة طبعية مرقونة خلقة في خلايا عضو من الدماغ البشري تنتقل عبر الأجيال بمورثات عضوية، هو من أجل اتخاذ فرضية العمل هذه أساساً لإقامة نظرية لسانية. وغاية هذا البناء المنطقي تكمن في اقتناص "الملكة اللغوية"، وصوغ مثال لها في نسق من المبادئ والقواعد، أو التمثيل لتلك الملكة بواسطة نموذج نحوي. ولسنا بحاجة إلى التذكير بأن أي نموذج يجب أن يتم بناؤه بالقياس إلى حقل معين من الموضوعات، بحيث يصير ذاك النموذج المقام مشابهاً لأصله بنية ووظيفة.

يقول الأوراعي: "تعدّ التمييز داخل القدرة اللغوية بين المعارف الطبيعية والمعارف الكسبية انعكس بشكل واضح على طريقة الاستدلال التي انتهجها تشومسكي لإثبات طبيعة المعارف المنسوجة خلقة في خلايا الذهن البشري، وليس من المبالغة القول أن تشومسكي قد فقد كل وسائل الاستدلال لإثبات طبيعة المعارف اللسانية، ولجأ إلى الخطابة لإقناع الأتباع بأن ما يستنبطه من دراسته للغة الإنجليزية يجب عدّه معارف لسانية مطبوعة في ذهن كل واحد، وهي أيضاً مبادئ النحو الكلي"¹² وبالتالي فإن ما خلص إليه الأوراعي في نقده للسانيات الكلية هو وجوب استبعاد فرضية العمل الطبيعية لفشل أصحابها في وصف عدة الاكتساب أولاً ووصف طرائقه ثانياً.

ومن الاختلالات التي سجّلها الأوراعي على النحو الكلي تغليب منهج الاستنباط البرهاني لليقين الرياضي وإن لم يصادف واقعا في لغة على التفسير العلمي وإن طابق بضع لغات وهو يكشف عن ضعف درجة التطابق بين تنبؤات النحو الكلي وواقع اللغات وكذلك أدى تصاعد القوادح أو الأمثلة المضادة إلى تعميق أزمة اللسانيات الكلية وهو ما ألجأ تشومسكي إلى اعتماد اللغة الاصطلاحية للدفاع عن النظرية المتأزمة وليس لتطوير المعرفة اللغوية.¹³ ذلك أن قبول النظرية لا يقوم على مجرد افتراضات وتخمينات لا تلامس الواقع، وإنما يتوقف على درجة اقتراب هذه النظرية من الوقائع فالأصل في النظريات العلمية أن تمتلك نتائجها محتوى موجود في المقدمات المنطقية، أمّا الاستدلالات غير البرهانية والتي يقوم عليها نحو تشومسكي فهي تخرق هذه القاعدة المنطقية حينما تسلم بنتائج غير مرتبطة بمحتوى مقدماتها.¹⁴

من الاختلالات المنهجية إذن التي وقعت فيها اللسانيات الكلية أنّها تُقدّس النظرية وتقدمها على المعطيات خوفاً عليها من الانهيار في ظل التهديد التجريبي الذي يصاحب النظرية التوليدية لما تعرضها اللغات الخاصة من خصوصيات تركيبية لم تجد لها مكاناً في الجهاز التفسيري للسانيات الكلية، فتظطر بذلك إلى الطعن في اللغة موضوع الوصف وتصفها بالخلل، فهي تطعن في

المعطيات لكنها لا تعيد النظر أبدا في المعرفة النظرية ولا تشك في صحتها لأنها معرفة يقينية لا تقبل الدحض رغم أنها مستنبطة من مقدمات لا تحيل على واقع بالرغم من ذلك تحتفظ النظرية في اللسانيات التوليدية بصفة اليقينية لأن المعلومة اليقينية تستمد درجة صدقها ويقينها من منهجية استنباطها لا بمعيار مطابقتها للواقع¹⁵

5. النظرية اللسانية النسبية كبديل للسانيات الكلية والخاصة

بالنظر إلى الشرطين الذين تتأسس عليهما أي نظرية علمية -مطابقة الواقع والصمود أمام النقد العقلي- تبين حسب الأوراعي أن البحث اللساني قديما وحديثا وقع في العديد من المزالق بسبب إغفال أحد الشرطين؛ فإذا كانت اللسانيات الكلية المعاصرة قد استمدت نظريتها من الشرط الثاني ولكنها أغفلت مطابقة النظرية للواقع فإن البحث اللغوي القديم أو ما اصطلح عليه الأوراعي باللسانيات الخاصة استند على شرط واحد وأهمل وضع النظرية في نسق منطقي فوقع في العديد من الهفوات، وهذا ما دفع الأوراعي إلى إعادة تصور نظرية بديلة وسيطة تقترب أكثر من معطيات اللغة العربية دون أن تغفل ما يسهم في ضبط النظرية من نسق منطقي عقلي تجريدي ينتقل بقواعد اللغة العربية من التخصيص إلى التعميم حتى لا تقع فيما وقعت فيه اللسانيات العربية الخاصة.¹⁶

تُعرف النظرية البديلة التي اقترحها الأوراعي باللسانيات النسبية وهي النظرية التي ستسد - حسب- الثغرات التي وقع فيها أصحاب اللسانيات الكلية بسبب تعميم قواعد خاصة بنمط من اللغات على بقية اللغات التي تنتهي إلى نمط آخر، لأنها نظرية تلامس الواقع وتحتفظ بهدف التنظير في الآن نفسه لذلك اقترح الأوراعي "أن تتخذ هذه النظرية من بعض اللغات البشرية موضوعا لاقتناص ما هو مشترك بينها ويحتمل ألا يوجد في غيرها"¹⁷ معتمدا على مبدأ الوسائط اللغوية التي تحضر حضورا إيجابيا في اللغات المنتمية إلى نفس النمط وتحضر حضورا سلبيا في اللغات التي تنتهي إلى نمط آخر

فهي لا تسعى لتعميم قوانينها على جميع اللغات البشرية وإلا وقعت فيما وقعت فيه اللسانيات الكلية من إسقاطات تعسفية لبعض القوانين على لغات تنتهي إلى أنماط مختلفة ، ولا تدرس اللغة العربية دراسة مستقلة بعيدا عما تشترك فيه مع غيرها من اللغات التي تنهي معها في نفس النمط، منتقلة بذلك من مبدأ التعميم الذي وقعت فيه اللسانيات الكلية إلى وسيط التنميط . وقد ميّز الأوراعي بين ثلاثة أنواع من الأصول اللغوية:

أصول كلية: وتشمل جميع اللغات وهي الأصول الدلالية والأصول التداولية .

أصول نمطية: تشمل قسما من اللغات

أصول خاصة: تنفرد بها لغات دون أخرى، وهي أصول صورية للصياغة الصوتية، محكومة بمبدأ الخفة.

ذكر الأوراعي أنّ من شروط تأسيس نظرية بديلة أن تتصف بالخصائص التالي ذكرها:

✓ أولاً أن تتوافر في النظرية المقترحة القدرة على حل أزمة فكرية في حقل الدراسات اللغوية وأن يكون موافقا لأصول الحضارة الإسلامية بحيث ينتفي التعارض بين متجذرة فرضية العمل التي تؤسس نظرية اللسانيات النسبية وبين أصول العقيدة الإسلامية

✓ ثانياً أن يشكل وجود النظرية المستحدثة نظرة جديدة إلى اللغة إذا طوّرت هذه النظرية معرفتنا باللغات البشرية، ويُفترض عندئذ أن تحدث ثورة علمية في حقل الدراسات اللغوية إذا حصرت الأنماط اللغوية ووفرت ما يلزم من النماذج النحوية¹⁸

✓ أن تقدم النظرية اللسانية المستحدثة نظرة جديدة إلى اللغة مغايرة لما هي عليه في النظريات اللسانية السابقة، فإذا كانت اللغة في تقدير اللسانيات الكلية ملكة طبيعية تنتقل من السلف إلى الخلف بموروثات بيولوجية، فهي في تصور اللسانيات النسبية ملكة كسبية تنشأ بالوضع الاختياري وتنتقل بالاكْتساب¹⁹

ويميز الأوراعي بين ما يسميه اللسانيات الكلية واللسانيات النسبية من خلال ما يلي:

من أوليات اللسانيات الكلية مبدأ التعميم، ومنهجيتها تتألف من الفرض الاعتباطي وقواعد البرهان الرياضي ونتائجها معرفة نظرية تغلب اليقين الرياضي... بينما نظرية اللسانيات النسبية المستحدثة مؤخرًا تضطرها بنيتها المنطقية إلى التنبؤ بأكثر من نموذج نحوي لكن في حدود ما يسمح به مبدأ الثالث المرفوع...²⁰

اللسانيات النسبية نظرية لغوية تؤسسها فرضية مراسية -أي مرتبطة بالواقع غير اعتباطية- تفيد أنّ اللغات ملكات صناعية كسبية²¹ وبموجب هذه الفرضية التي ترتبط بالواقع ينطلق الباحث اللساني بدءاً من اللغات نحو النظرية مما يجعل جميع توقعات النظرية النسبية توقعات لسانية نمطية أو تتوقع لكل الأنماط اللغوية القواعد النحوية المناسبة لها

وعدة الاكْتساب في النظرية النسبية هي في حقيقتها "قوى ذهنية بنية خلاياها خالية من العلوم الغريزية الأولية، لكنها مهيأة بيولوجياً لأن تتشكل ببنية ما يحل فيها من العالم الخارجي المنتظم على وجه كلي فتحصل لها القدرة على الاستنباط واكْتساب العلوم."²²

ومن مستلزمات الفرضية الكسبية، كما وصف الأوراعي، اعتبار اللغة موضوعاً ثابتاً تكتشفه النظرية اللسانية، وليس موضوعاً متشكلاً تبنيه النظرية كما يعتقد الاصطلاحيون ومنهم شومسكي في مجال اللغة²³. وأن التأثير بين النظرية اللسانية وموضوعها اللغة متبادل، ينطلق من اللغة لتصوير بنية النظرية، ويرتد إليها من هذه الأخيرة لصياغة نسخة مطابقة للغة.

تتصور اللسانيات النسبية اللغة ملكة صناعية متقومة الماهية من تظافر أربعة مبادئ: المبدأ الدلالي والمبدأ التداولي، محتوياتهما كلية بحثة والمبدأ الوضعي للوسائط اللغوية؛ يتكون محتواه من تقابل شبكتين من الوسائط المتناسبة بسببه تتفرع اللغات البشرية إلى نمطين رئيسيين: لغات توليفية، ولغات تركيبية، وأخيراً المبدأ الصوري محتواه نسق من المبادئ والقواعد النمطية المتفرعة

من إحدى الشبكتين من الوسائط اللغوية والمتحكمة في بنية قولية تتقاسمها لغات من نفس النمط²⁴

اللغة نسق مركب من قواعد موزعة على أنساق فرعية عددها محصور في مبادئ تكوين ماهية اللغات:

المبدء الدلالي: يحتل المبدء الدلالي ضمن المبادئ المكونة لماهية اللغة المرتبة الأولى أما عن أصل هذا المبدء فهو المكون الوجودي المنتظم على وجه كلي من مفردات غير متناهية، ومن جملة ما يلزم عن الانتظام أن تأتلف كل مفردة مع غيرها بخصائص جامعة وتختلف عنها بخصائص فارقة فالقمر غير الأرض وكلاهما كوكب يسبح في مداره.

إن استنساخ الملكات الذهنية للمفردات الكونية غير المتناهية ليشكل القسم الأول من المبدء الدلالي، وعن انتقال محتوى هذا القسم من الكون الذهني إلى الكون اللغوي ينشأ معجم اللغات؛ بحيث يكون المعجم اللغوي تابعا للمفردات المخترنة في الكون الذهني التي تتبع من جهتها للمفردات المنتظمة في الكون الوجودي .

6. خاتمة

إن أزمة الفكر اللغوي المعاصر باعثة على التفكير في استحداث نظرية لسانية خاصة مع ثبوت أن ما بأيدي اللغويين من نماذج نحوية ونظريات لسانية قديمة أو جديدة لا يُسعف الباحثين المتخصصين في دراسة اللغات على تطوير معرفة الناس بلغاتهم. وبعبارة أخرى لا يُقبل أحد من اللسانيين المؤهلين علمياً على إنشاء نظرية لسانية إلا إذا قام الدليل على أن علم اللغة في أزمة فكرية لا يمكن تجاوزها بغير إقامة نظرية لسانية جديدة، من شأنها أن تحتفظ بصواب ما في النظريات السابقة، وتُصوّب أخطاءها؛ بحيث تُحدث النظرية الجديدة نقلة علمية في ميدان اللسانيات، وطفرة معرفية بالموضوعات اللغوية.

فلا بد إذن من وجود مبرر معقول يحمل واحداً من مجتمع اللسانيين أو أكثر على بناء نظرية لسانية، ويُرجّب الباقي في بذل جهد ثقافي إضافي لاستيعاب النظرية المستحدثة والوقوف على خصائصها وجدواها بالقياس إلى غيرها. ولا مبرر أقوى من تأزم الفكر اللغوي القائم، بحيث يكون تجاوز هذه الأزمة هدفاً مباشراً لنظرية اللسانيات النسبية التي قدّمها الأوراعي والتي أنبأت عن وعي ابستمولوجي لهذا العالم للدرس اللساني، الأمر الذي يستلزم تضاعف الجهود للتعريف بهذه النظرية وتطوير معرفتنا بلغتنا العربية.

الهوامش:

- ¹- اسماعيلي العلوي، امحمد الملاح، قضايا استمولوجية في اللسانيات، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ط 2009، بيروت، لبنان، ص 21.
- ²- يُنظر ابن شماني محمد، النظرية الغلوسيمائية وتجلياتها في الدرس اللساني العربي، مقارنة استمولوجية، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر ص 55.
- ³- أسماء عبداوي، المنجز اللساني في ضوء الممارسة الاستمولوجية، مجلة دراسات وأبحاث، ع 1، مارس 2019، الجزائر، ص 336.
- ⁴- يُنظر: محمد الأوراعي، الوسائط اللغوية، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط 1، 2001، ج 1، ص 35-36.
- ⁵- Voir Robert Martin , comprend la linguistique.
- نقلا عن بن شماني محمد، تجليات النظرية الغلوسيمائية في الدرس اللساني ، رسالة دكتوراه ص 61
- ⁶- يُنظر محمد الأوراعي، اللسانيات النسبية، دواعي النشأة، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010، بيروت، لبنان، ص 9.
- ⁷- محمد الأوراعي، الوسائط اللغوية، أفول اللسانيات الكلية، دار الأمان، الرباط المغرب، ط 2 2013، ص 9.
- ⁸- من جملة ما يميز الفلسفة الاصطلاحية نفقها لحقائق الأشياء في الأعيان. وأصحاب هذه النزعة مجمعون، تبعاً لما نقل عنهم بوبر، على أن عقل الإنسان هو الذي يفرض قوانينه على الطبيعة، ومن ثمة فإن "قوانين الطبيعة" ما هي إلا نتائج لإبداعات الإنسان، كما أن علم الطبيعة النظري إنما هو بناء منطقي لا صورة عن الطبيعة. وهذا البناء لا يتحدد، في التوجه الاصطلاحي، بخصائص العالم، وإنما الأمر بخلاف ذلك؛ إذ البناء المنطقي هو الذي يحدد خصائص عالم اصطناعي، أي عالم من المفاهيم المحددة ضمناً بواسطة القوانين الطبيعية التي اخترناها، ولا يصف العلم سوى عالم من هذا القبيل. للمزيد من التفصيل، ينظر: شومسكي، تأملات في اللغة (Chomsky) . (Réflexions sur le langage و كارل بوبر، منطق المعرفة العلمية (K. Popper, La logique de la découverte scientifique).
- ⁹- محمد الأوراعي، اللسانيات النسبية، دواعي النشأة، ص 147.
- ¹⁰- للتوسع في الموضوع، يُنظر: محمد الأوراعي، الوسائط اللغوية، ج 1. أفول اللسانيات الكلية.
- ¹¹- محمد الأوراعي، الوسائط اللغوية أفول اللسانيات الكلية، ج 1، ص 61.
- ¹²- محمد الأوراعي، اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية، دار الأمان، الرباط، 2010، ص 258.
- ¹³- يُنظر المرجع نفسه، ص 261.
- ¹⁴- يُنظر: حافظ اسماعيلي علوي، قضايا استمولوجية في اللسانيات، ص 132.
- ¹⁵- يُنظر: محمد الأوراعي، نظرية اللسانيات النسبية دواعي النشأة، ص 190-191.
- ¹⁶- يُنظر الأوراعي أفول اللسانيات الكلية، ج 1، ص 48.
- ¹⁷- الأوراعي، الوسائط اللغوية، أفول اللسانيات الكلية، ج 1، ص 49.
- ¹⁸ المرجع السابق، ص 10-11
- ¹⁹ المرجع السابق ص 16
- ²⁰ المرجع السابق، ص 16

- ²¹- يُراجع في ذلك: محمد الأوراعي، نظرية اللسانيات النسبية، دواعي النشأة.
- ²²- محمد الأوراعي اللسانيات النسبية وتعليم العربية، ص268.
- ²³- المرجع نفسه، ص17.
- ²⁴- المرجع نفسه، ص18.